مصطلحات ومفاهيم قرآنية

الهداية

د. صالح عضيمة

الله مفيض الوجود، وخالق كل موجود، ولا يليق بكماله، وحاشاه، أن يترك مخلوقاته تسير على غير نظام مقدر لها، ودون أن يكون هنالك غاية تسعى إلى بلوغها. فالنظام المقدر، والطريق التي يسلكها هذا النظام، والغايات المرجو بلوغها ... هذه هي المعاني الواسعة الشاملة التي تبرز في الآيات القرآنية الحاوية لكلمة الهداية، وما يشتق منها، وما يقترب من معناها ودلالتها.

أثناء شرحه لآيات المحاجة بين النبي إبراهيم عليه السلام وبين عدوه، يفيض العلّامة الطباطبائي بكلام يكشف به عن صريح معنى الهداية بالتدقيق والتمثيل، وكأنه يفصّل في القول الذي أوجزناه. فمن ذلك قوله: إن كل شيء بعد تمام خلقه، يهتدي بهداية من الله سبحانه، إلى مقاصد وجوده وكمالات ذاته، وليس ذلك إلّا بارتباطه مع غيره من الأشياء واستفادته منها بالفعل والانفعال، بالاجتماع والافتراق والاتصال والانفصال، والقرب والبعد، والأخذ والترك ونحو ذلك. ومن المعلوم أن الأمور التكوينية لا تغلط في آثارها، ولا تخطئ في تشخيص غاياتها ومقاصدها، فالنار في مسها الحطب مثلاً، وهي حارة لا تريد تبريده، والنامي كالنبات مثلاً، وهو نام، لا يقصد إلّا عظم الحجم دون صغره وهكذا، ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾[1]، فلا تخلّف ولا اختلاف في الوجود.

ولكل شيء من الأشياء روابط حقيقية مع غيره، وبينه وبين الآثار والغايات التي يقصدها، طريق أو طرق مخصوصة، هي السالك عليها للبلوغ إلى غايته والأثر المخصوص المقصود منه، وكذلك الغايات والمقاصد الوجودية، إنما تنال إذا سلك إليها من الطرق الخاصة بها والسبل الموصلة إليها. فالبذرة إنما تنبت الشجرة التي في قوتها إنباتها، مع سلوك الطريق المؤدية إليها بأسبابها وشرائطها الخاصة، وكذلك الشجرة إنما تثمر الثمرة التي من شأنها إثمارها، فكل سبب يؤدّي إلى مسبب، ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلّا نكداً﴾[2]، والعقل والحس يشهدان بذلك، وإلّا اختل قانون العلّية العام.

وإذا كان كذلك، فالصنع والإيجاد يهدي كل شيء إلى غاية خاصة، ولا يهدي إلى غيرها، ويهدي إلى كل غاية من طريق خاص لا يهدي إليها من غيره، ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾[3]. فكل سلسلة من هذه السلاسل الوجودية الموصلة إلى غاية وأثر، إذا فرضنا تبدل

حلقة من حلقاتها، أوجب ذلك تبدل أثرها لا محالة. هذا في الأمور التكوينية، وفي الأمور غير التكوينية، من الاعتبارات الاجتماعية وغيرها على هذا الوصف أيضاً من حيث إنها نتائج الفطرة المتكئة على التكوين، فالشؤون الاجتماعية والمقامات التي فيه والأفعال التي تصدر عنها، كل منها مرتبط بآثار وغايات لا تتولد منه إلّا تلك الآثار والغايات ولا تتولد هي إلّا منه، فالتربية الصالحة لا تتحقق إلّا من مربّ صالح، والمربي الفاسد لا يترتب على تربيته إلّا الأثر الفاسد، وإن تظاهر بالصلاح ولازم الطريق المستقيم في تربيته، وضرب على الفساد المطوي في نفسه بمئة ستر واحتجب دونه بألف حجاب، وكذلك الحاكم الظالم في حكومته، والقاضي الواثب على مسند القضاء بغير لياقة في قضائه، وكل من تقلد منصباً اجتماعياً من غير طريقه المشروع، وكذلك كل فعل باطل بوجه من وجوه البطلان، إذا تشبه بالحق وحل بذلك محل الفعل الحق، والقول الباطل إذا وضع موضع القول الحق، كالخيانة موضع الأمانة، والإساءة موضع الإحسان، والمكر موضع النصح، والكذب موضع الصدق. فكل ذلك سيظهر أثرها ويقطع دابرها، وإن اشتبه أمرها أياماً، وتلبس بلباس الصدق والحق أحياناً، سنة الله التي جرت في خلقه، ولن تجد لسنة الله تحويلاً، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ويرى الطباطبائي أن الهداية تتوزع على ثلاثة أقسام:

الأول: الهداية إلى الحق بالبرهان والاستدلال، كما في قصة الذي حاج إبراهيم في ربه، حيث هدى إبراهيم إلى حق القول، ولم يهد الذي حاجه، بل أبهته وأضلّه كفره.

والثاني: الهداية إلى الحق بالإراءة والإشهاد، كما في قصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فإنه بيّن له ما أشكل عليه من أمر الإحياء، بإماتته وإحيائه وسائر ما ذكره في الآية، كل ذلك بالإراءة والإشهاد.

والثالث: الهداية إلى الحق وبيان الواقعة بإشهاد الحقيقة والعلة التي تترشح منها الحادثة، وبعبارة أخرى بإراءة السبب والمسبب معاً.

وفي كتاب «البيان» للعلّامة أبي القاسم الخوئي، عند شرح الآية: ﴿اهدنا الصراط﴾[٤]، نعثر على تقسيم آخر للهداية، لا يختلف عن هذا الذي عند الطباطبائي إلّا في الأسلوب والطريقة. فالهداية من الله تعالى هدايتان؛ الأولى هداية عامة. والثانية: هداية خاصة. والهداية العامة قد تكون تكوينية، وقد تكون تشريعية، فأما الهداية العامة التكوينية، فهي التي أعدها الله تعالى في طبيعة كل موجود، سواء أكان جماداً أم كان نباتاً أو حيواناً، فهي تسري بطبعها أو باختيارها نحو كمالها، والله هو الذي أودع فيها قوة الاستكمال، ألا ترى كيف يهتدي النبات إلى نموه، فيسير إلى جهة لا صاد له عن سيره فيها؟ وكيف يهتدي الحيوان فيميز بين من يؤذيه وبين من لا يؤذيه؟ وكيف يهتدي النمل والنحل إلى تشكيل جمعية وحكومة وبناء مساكن؟ أو كيف يهتدي الطفل إلى ثدي أمه، ويرضع منه في بدء ولادته: ﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[٥].

وأما الهداية العامة التشريعية، فهي الهداية التي بها هدى الله جميع البشر، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فقد أتم الحجة على الإنسان بإفاضته عليه العقل وتمييز الحق من الباطل، ثم بإرساله رسلاً يتلون عليهم آياته، ويبينون لهم شرائع أحكامه، وقرن رسالتهم بما يدل على صدقها من معجز باهر، وبرهان قاهر، فمن الناس من اهتدى، ومنهم من حق عليه الضلالة ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾[٦].

وأما القسم الثاني: أعني الهداية الخاصة، فهي هداية تكوينية، وعناية ربّانية، خص الله بها بعض عباده، حسب ما تقتضيه حكمته، فيهئ له ما به يهتدي إلى كماله ويصل إلى مقصوده، ولولا تسديده لوقع في الغي والضلالة. هذا وقد أشير إلى هذا القسم من الهداية في بعض الآيات المباركة، قال عزّ من قائل: ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليه الضلالة﴾[٧]، ﴿قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾[٨]، ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾[٩]، ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[١٠]، ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[١١]، ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾[١٢]، إلى غير ذلك من الآيات التي يستفاد منها هداية الله وعنايته الخاصة، بطائفة خاصة دون بقية الناس.

ولسنا ندري إذاكان العلّامة أبو القاسم الخوئي قد تأثر في منهج هذا التقسيم، بالحكيم الفيلسوف ملّا هادي السبزواري، فهذا الأخير يذكر في أكثر من كتاب له أن الهداية قسمان: هداية تكوينية، ومعناها «تقدير كل شيء وهديه إلى ما يليق به ويرتضيه بحسب ماهيته»، وينطوي تحتها المؤمن والكافر. وهداية تشريعية، وهي خاصة ومعناها إلهام الدين والتوحيد لمن يشاء ولمن يصطفي من عباده. أو كما يذكر العلّامة الطباطبائي في شرح سورة طه، بأنها الإيمان بالرسول وباتباعه في أمر الدين والدنيا، وبعبارة أخرى هي الاهتداء إلى ولايته، وقيل: الاهتداء لزوم الإيمان والاستمرار عليه مادامت الحياة، وقيل: أن لايشك ثانياً في إيمانه، وقيل: الأخذ بسنة النبي وعدم سلوك سبيل البدعة، وقيل: أن يعلم أن لعمله ثواباً يجزى عليه، وقيل: هو تطهير القلب من الأخلاق الذميمة، وقيل حفظ العقيدة من أن تخالف الحق في شيء. وكل هذه الأقوال لا تندّ عن الصواب، وكلها تخضع للتفصيل والمناقشة.

ويحرّى العلّامة الراغب الأصفهاني الفرق بين الهدى والهداية، فهما وإن كانا في موضوع اللغة واحداً، لكن قد خص الله عزّ وجلّ لفظة الهدى بما تولاه وأعطاه، واختص هو به، دون ما هو إلى الإنسان؛ نحو: ﴿هدى للمتقين﴾[١٣]، ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾[١٤] ﴿هدى للناس﴾[١٥] ﴿قل إن هدى الله هو الهدى...﴾[١٦]. والاهتداء يختص بما يتحراه الإنسان عن طريق الاختيار، أما في الأمور الدنيوية أو الأخروية، قال تعالى ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها﴾[١٧]، ﴿لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾[١٨]، ويقال ذلك لطلب الهداية نحو: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم

تهتدون﴾[١٩]. ويقال المهتدي لمن يقتدي بعالم، نحو: ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾[٢٠] تنبيهاً على أنهم لا يعلمون بأنفسهم، ولا يقتدون بعالم، وقوله: ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها﴾[٢١]، فإن الاهتداء ههنا، يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية، ومن الاقتداء، ومن تحريها.

وهو يرى أن هداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف، من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، التي أعطى منها كل شيء بقدر فيه، حسب احتماله كما قال: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[٢٢].

والثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا﴾[٢٣].

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾[٢٤]، ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾[٢٥]، ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[٢٦]، ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾[٢٧]، ﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾[٢٨].

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقوله: ﴿سيهديهم ويصلح بالهم﴾[٢٩] ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾[٣٠].

وبعد ذكر هذه الأوجه الأربعة، يحاول الراغب بكثير من المهارة والدقة أن يوجه التعليلات القريبة أو البعيدة، للآيات التي تجتمع حول كل وجه، ويبين شيئاً من معناها الخاص بها، فمن أحب أن يتوسع ويستزيد، فعليه بالعودة إلى كتابه «المفردات».

الهوامش

١. سورة هود، الآية: ٥٦.
٢. سورة الأعراف، الآية: ٥٨.
٣. سورة النمل، الآية: ٨٨.
٤. سورة الفاتحة، الآية: ٤.
٥. سورة طه، الآية: ٥٠.
٦. سورة الإنسان، الآية: ٣٠.
٧. سورة الأعراف، الآية: ٣٠.
٨. سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
٩. سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.
١٠. سورة الأنعام، الآية: ١٤٤.
١١. سورة النور، الآية: ٤٦.
١٢. سورة القصص، الآية: ٥٦.
١٣. سورة البقرة، الآية: ٢.
١٤. سورة البقرة، الآية: ٥.
١٥. سورة الأنعام، الآية: ٩١.
١٦. سورة البقرة، الآية: ١٢٠.
١٧. سورة الأنعام، الآية: ٩٧.
١٨. سورة النساء، الآية: ٩٨.
١٩. سورة البقرة، الآية: ٥٢.
٢٠. سورة البقرة، الآية: ١٧٠.
٢١. سورة الإسراء، الآية: ١٥.
٢٢. سورة طه، الآية: ٥٠.
٢٣. سورة السجدة، الآية: ٢٤.
٢٤. سورة محمد، الآية: ١٧.
٢٥. سورة التغابن، الآية: ١١.
٢٦. سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
٢٧. سورة مريم، الآية: ٧٦.
٢٨. سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
٢٩. سورة محمد، الآية: ٥.
٣٠. سورة الأعراف، الآية: ٤٣.